جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

أصداء القبيلة
في شعر القحيف العقيلي

الدكتور
جمال عبد الحميد زاهر

أستاذ الأدب العربي المساعد ـ كلية الآداب
جامعة قناة السويس ـ جمهورية مصر العربية

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الثامن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

أصداء القبيلة في شعر القحيف العقيلي

جمال عبد الحميد زاهر

قسم الأدب العربي - كلية الآداب- جامعة قناة السويس ـ جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني: gamalzaher932@yahoo.com

الملخص

هذا البحث يدور حول أحد الشعراء الذين أعدتهم القبيلة للملمات وادخرتهم للزبات، فلم يخذلوها بل وظفوا شعرهم في خدمتها، وهو القحيف العقيلي أحد شعراء الطبقة العاشرة من شعراء الإسلام، وقد آثرت دراسة هذا الموضوع عنده نظرا لغلبة الشعر الذي يدور في فلك القبيلة وتردده في ديوانه بصورة لفتت انتباه النقاد.

ويتطلع البحث إلى أن يجيب عن عدة تساؤلات منها: كيف وظف القحيف العقيلي شعره في خدمة قبيلته؟ وما الأغراض الشعرية التي توسل القحيف بها لتحقيق هذه الغاية؟ وما أبرز المعاني والمضامين التي يزخر بها شعر القحيف في قبيلته؟ وما أبرز السمات الفنية الخاصة التي يتميز بها شعر القحيف في قبيلته؟ ويخضع البحث لمعطيات المنهج الوصفي.

الكلمات المفتاحية : أصداء – القبيلة– القحيف– العقيلي .

The Echoes of the Tribe in the Poetry of Al-Qaif Al-Oqaily

Gamal Abdelhamid Zaher
Assistant Professor of Arabic Literature Faculty of Arts – Suez Canal University - Arab Republic of Egypt .
Email: gamalzaher932@yahoo.com

Abstract

This research focuses on one of the poets prepared by the tribe for the times of distress and adversity. They did not fail their tribe but employed their poetry in its service. Al-Qaif Al-Oqaily was one of the poets who ranked among the tenth class of the Muslim poets. The reason why this study on Al-Qaif Al-Oqaily has been conducted is that his poetry frequently addressed the tribe's issues in a way that drew the critics' attention. This research is intended to answer several questions. Among them there are: How did Al-Qaif Al-Oqaily use his poetry in the service of his tribe? What poetic purposes did he make use of in order to achieve this end? What are the most prominent meanings and themes found in Al-Qaif's poetry about his tribe? What are the special artistic features of Al-Qaif's poetry about his tribe ؟

The data of the research is to be analyzed using the descriptive analysis approach.

Keywords : echoes – tribe – Al-Qaif – Al-Oqaily.

بسم الله الرحمن الرحيم

*** مقدمة** :

لا شك أن الشاعر كان يحظى بمكانة كبيرة في العصر الجاهلي وما تلاه، فهو لسان قبيلته المعبر عن آمالها وآلامها، المشارك بشعره في أفراحها وأتراحها، ينشر مفاخرها، ويسجل مآثرها، ويتغنى بانتصارها، ويدفع عن عرضها، ويقف في وجه عدوها.

لذلك كانت القبيلة تستبشر خيرا إذا ظهر فيها شاعر وتتبارى في تكريمه، وتنزله بين أبنائها منزلة الثريا بين النجوم، يقول ابن رشيق:"كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصُنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج"(١).

وهذا البحث يدور حول أحد الشعراء الذين أعدتهم القبيلة للملمات وادخرتهم للزبات، فلم يخذلوها بل وظفوا شعرهم في خدمتها، وهو القحيف العقيلي أحد شعراء الطبقة العاشرة من شعراء الإسلام، وقد آثرت دراسة هذا الموضوع عنده نظرا لغلبة الشعر الذي يدور في فلك القبيلة وتردده في ديوانه بصورة لفتت انتباه النقاد، فقد وصفه الآمدي بقوله:" شاعر محسن كثير الذب عن قومه"(٢)، كذا أشار إلى هذا الأمر جامع ديوانه بقوله:" كان

---

(١) العمدة ١/ ٦٥.

(٢) الآمدي: المؤتلف والمختلف- تح عبد الستار فراج- مطبعة عيسى البابي الحلبي - ١٩٦١م- ص١٢٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

صوت القحيف يرتفع ليذب عن قومه بعد أن استعر أوار الحرب بين بني عقيل وحنيفة"(١).

نحن أمام حالة قلَّ مثالها في شعرنا العربي، تتفرد عمن عداها بعمق الانتماء القبلي؛ فذابت فيه نفسه، وتلاشت الذات أمام القبيلة، وغدت قبيلته هى قضيته الأولى، التي لا يحيا إلا من أجلها، فهو للقبيلة أولا وأخيرًا، منها الغدو وإليها الرواح، وسعت في عينيه عالمه، وملأت وجدانه؛ فجاءت أغراض شعره جميعها فيضا قَبَلِيًّا، تؤكد الدور المنوط به في قبيلته، في القيادة المعنوية الوجدانية، وتقدمه لصفوف المعارك على حد سواء.

ويتطلع البحث إلى أن يجيب عن عدة تساؤلات منها: كيف وظف القحيف العقيلي شعره في خدمة قبيلته؟ وما الأغراض الشعرية التي توسل القحيف بها لتحقيق هذه الغاية؟ وما أبرز المعاني والمضامين التي يزخر بها شعر القحيف في قبيلته؟ وما أبرز السمات الفنية الخاصة التي يتميز بها شعر القحيف في قبيلته؟ ويخضع البحث لمعطيات المنهج الوصفي.

(١) القُحَيْف العُقَيْلِيّ: شعر- جمع د٠حاتم صالح الضامن- مجلة المَجْمع العلمي العراقي، ج٣، م٣٧، ١٩٨٦م- ص ٢٢٣ .

**** القحيف العقيلي:**

شاعرنا هو القُحَيْفُ[١] بن خمير بن سليم الندى بن عبد الله بن عوف بن حزن بن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، ولقبه العقيلي[٢] والعامري[٣]، وكنيته أبو الصباح[٤].

شاعر مقل من شعراء الإسلام، كان معاصرا لذي الرمة واشترك معه في التشبيب بخرقاء، روى الأغاني عن الصباح بن الحجاج عن أبيه قال: مررت بخرقاء وهي بفلج فقالت: أقضيت حجك وأتممته؟ فقلت: نعم، فقالت: لم تفعل شيئا، فقلت: ولم؟ فقالت: لأنك لم تلمم بي ولا سلمت علي، أو ما سمعت قول ذي الرمة:

---

(١) القُحَيْفُ في اللغةِ: تصغيرُ(القِحْف) وهو عظمٌ مِنَ الجُمجمةِ، والقطعةُ مِنَ الشيءِ، والقِحْفُ: إناء من خشب على مثال قِحْفِ الرَّأسِ كأنه نِصفُ قدح، يقال: ما له قِدٌّ ولا قِحْفٌ، فالقِدُّ قدح من جلدٍ، والقِحْفُ من خشب، وقَحَفْتُ قَحْفًا: شَرِبْتُ جميع ما في الإناء، ويُقال: شَرِبْتُ في القِحْفِ، ولمّا بَلَغ امْرَأ القيس قَتْلُ أبيه قال: اليوم قِحَافٌ وغدا نِقَافٌ؛ اليوم خمرٌ وغدا أمْرٌ، والمِقْحَفَةُ: المِذْراةُ يُقْحَفُ بها الحَبُّ أي يُذَرّى، وقال ابنُ الأعرابيِّ: القُحُوْفُ: المَغارِفُ وسَيْلٌ قُحَافٌ وقُعَافٌ وجُحَافٌ وجُرَافٌ – بالضَّمِّ فيهنَّ – : يذهَبُ بكُلِّ شيء، وبنو قُحافَةَ: بطنٌ من خَثْعَمَ، ينظر: لسان العرب(قَحَفَ)، العباب الزاخر١/ ٤٩١.

(٢) ترجمة القحيف في: الأغاني٢٤/٤٩، المؤتلف والمختلف/١٢٩، خزانة الأدب١٠/١٣٩، ابن سلام٢/ ٧٧٠، المرزباني/٣٣١، الوافي بالوفيات٢٤/١٥١، اللباب في تهذيب الأنساب١/٣٦٣، جمهرة الأنساب/٤٢١، العباب الزاخر١/٤٩١، نهاية الأرب/٣٢١، الأعلام٥/١٩١، تاريخ الأدب العربي لبلاشير٣/٧٠، وفي بعض الكتب أشير إلى الشاعر بأنه العجيف العقيلي انظر: المحاسن والأضداد/١٣٧، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار١/١٨٨.

(٣) أبو حاتم السجستاني: فحولة الشعراء/ ٣ ، الأزمنة والأمكنة ١/ ١٤٧، تاج العروس ٢٤/ ٢٣٩ (قحف).

(٤) توضيح المشتبه ٣/ ٣٣٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فقال: هيهات يا خرقاء، ذهب ذاك منك، فقالت: لا تقل ذاك، أما سمعت قول القحيف عمك:

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا مَلاحَةً ولو عُمِّرَت تَعمِيرَ نوحٍ وجَلَّتِ

وحدث أبو الشبل المعدي قال: نسب ذو الرمة بخرقاء البكائية، وكانت أصبح من القبس، وبقيت بقاءً طويلا، فنسب بها القحيف العقيلي فقال:

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا مَلاحَةً ولو عُمِّرَت تَعمِيرَ نوحٍ وجَلَّتِ

ولهذا التشبيب قصة، ذلك أن خرقاء لما كبرت وجاوزت تسعين سنة، وأحبت أن تنفق ابنتها وتخطب، أرسلت إلى القحيف العقيلي، وسألته أن يشبب بها، فقال:

لقد أرسلت خرقاءُ نحوي جَرِيَّها لتجعلني خرقاءُ ممن أَضَلَّتِ

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا مَلاحَةً ولو عُمِّرَت تَعمِيرَ نوحٍ وجَلَّتِ

ولابد أن القحيف كان حينذاك شاعرا كبيرا ملء السمع والبصر وإلا ما كانت خرقاء اختارته من دون سائر الشعراء لكي يشبب بها ومن ثم يتحقق غرضها الرامي إلى أن تنفق سوق ابنتها.

ليس صحيحا ما ذكره المرزباني وشمس الدين الدمشقي[١] من أن القحيف شاعر كوفي، بل الصحيح أنه أحد شعراء قيس، وهو أحد أبناء قبيلة عقيل وموطن قبيلته منطقة الأفلاج وبواديها وشعابها[٢].

(١) معجم الشعراء/ ٣٣١، توضيح المشتبه ٣/ ٣٣٩.
(٢) ذكرَ ياقوتُ الحمَويّ موضعَ (الأَفلاج) وأوصافهُ وشِعرَ القُحَيْف فيهِ، راجع: معجم البلدان: ٢٧١/٤.

وكان القحيف في بداية شبابه يسكن قرية الروقية الأثرية في وادي أكمة- بلدة الأحمر حاليا- بالأفلاج وكان يتردد إلى شعب من الشعاب القريبة من الروقية يخلو بنفسه فسمي هذا الشعب: "شعب القحيف"، ولاتزال هذه التسمية باقية إلى يومنا هذا، ومما يدل على أن القحيف نشأ وترعرع في بلاد الأفلاج قوله(١):

سَلُوا فَلَجَ الأفْلاجِ عَنَّا وَعَنْكُمُ وَأَكْمَةَ إذْ سَالَتْ سَرَارَتُهَا دَمَا

وقد أكثر القحيف ذكرها والتغني بها والدعاء لها (٢):

سقى فَلَجَ الأَفلاجِ من كل قُمّةٍ ذهابٌ تُرَوِّيهِ دِماثا وقُوّدا

بهِ نَجِدُ الصّيْدَ الغَرِيبَ ومَنْظَرا أَنِيقا ورَخْصاتِ الأَنامِلِ خُرّدا

وكذا فعل في قصيدته التي سجل فيها أحداث يوم النشاش: (٣)

تركنا على النَّشَّاشِ بكرَ بنَ وائلٍ وقد نهِلَت منها السيوفُ وعَلَّتِ

وبالفَلَجِ العادي قتلى إذا التقت عليها ضباعُ الغيلِ باتت وظَلَّتِ

والفلج المذكور هي مدينة الأفلاج حاليا، والغيل بلدة أثرية تحمل هذا الاسم من قديم الزمان حتى يومنا هذا وتبعد عن الأفلاج بمسافة ٣٥كلم، وكانت تسكنها بنو جعدة قديما وبها جبل التوباد الذي كان يرتاده قيس بن الملوّح وذكره في قصائده(٤):

---

(١) شعر القحيف ق٣٢ ص٢٥١.

(٢) شعر القحيف ق١٤ ص٢٣٨.

(٣) شعر القحيف ق٥ ص٢٣٣

(٤) راجع : سعد بن غنيم القباني: الشاعر القحيف العقيلي مابين الكوفة ووادي الدواسر والأفلاج - مقال- جريدة الرياض- ع ١٤٦٦٩- ٢٢/٨/ ٢٠٠٨م .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآني

ويستدل من الروايات القليلة التي وصلتنا عن حياته أنه كان جميل الوجه وضاء المحيا، ففي الأغاني أن القحيف كان يتحدث إلى امرأة من عبس، وقد جاورهم وأقام عندهم شهرا وهام بها عشقا، وكان يخبرها أن له نعما ومالا، وهويته العبسية، وكان من أجمل الرجال وأشطهم، فلما طال عليها واستحيا من كذبه إياها في ماله ارتحل عنهم وقال[١]:

تقولُ لي أختُ عَبسٍ ما أرى إبلا وأنت تزعم مَن والاك صِنديدُ
فقلتُ يكفي مكانُ اللومِ مُطَّرِدٌ فيه القَتيرُ بسَمرِ القَينِ مَشدودُ
وشِكَّةٌ صاغَها وَفراءَ كامِلَةً وصارِمٌ من سيوف الهندِ مَقدودُ
إنِّي ليرعَى رجالٌ لي سوامَهُمُ لي العقائل منها والمقاحِيدُ

كذا تخبرنا روايات أخرى أنه تعرض للحسد والغيرة من أبناء عمومته العقيليين، ففي روايةٍ لابن سلّام الجُمحيّ في طبقاتهِ[٢]: أنَّ القُحَيْف خرجَ زائرا إبراهيمَ بنِ عاصمٍ العُقَيليّ، فبعثَ الأشهبُ بنُ كُلَيبٍ العُقَيليّ إلى إبراهيمَ بنِ عاصمٍ رسولا يُخبرُهُ أنَّ القُحَيْف قد هجاهُ وأساءَ القولَ فيهِ ليحرمَهُ وليُقصيَهُ، ففعلَ، فقالَ القُحَيْفُ:

مَتَى مَا تُحِطْ خُبْرَا بِنَا يا ابْنَ عَاصِمٍ تَجِدْ لِي رِجَالا مِنَ بَنِي العَمِّ حُسَّدَا
وَمَا ذاكَ عَنْ ذَنْبٍ إليْهِمْ جَنَيْتُهُ سِوَى أنَّ لِي ذِكْرَا أغَارَ وَأَنْجَدَا

(١) الأغاني ٢٤/ ٥٠ .
(٢) طبقات ابن سلام٢/ ٧٧٠ .

وتشي هذه الرواية بمدى ما وصل إليه القحيف من علو منزلة، واتساع ذكر، وسمو مكانة، ونبوغ وشهرة وإلا ما كان تعرض للحسد والغيرة من أقرب أقاربه، فكل ذي نعمة محسود.

كذا تخبرنا الروايات أن القحيف ورد مكة حاجا وإن كان لم يراع آداب الحج، ففي الأغاني[1] أن بعض فقهاء أهل مكة نظر إلى القحيف وهو يحد النظر إلى امرأة، فنهاه عن ذلك، وقال له: أما تتقي الله ؟ تنظر هذا النظر إلى غير حرمة لك وأنت محرم ؟ فقال القحيف:

أقسمتُ لا أنسى وإنْ شَطَّتِ النَّوى ... عرانينهنَّ الشُمَّ والأعينَ النُّجْلا

ولا المِسْكَ عن أعطافهنّ ولا البَرَى ... ضممْنَ وقد لوَّبْنَها قصبا خَدلا

يقولُ لي المفتي وهن عشيّةً ... بمكةَ يَرْمَحْنَ المهدّبةَ السُّحُلا

تقِ اللهَ لا تنظر إليهنَّ يا فتى ... وما خِلْتَني في الحَجِّ مُلْتَمِسَا وَصْلا

وإنّ صِبا ابنِ الأربعينَ لسبةٌ ... فكيف مع اللائي مُثِلتُ بها مَثلا

عواكِفَ بالبيتِ الحرامِ ورُبَّما ... رأيتَ عيونَ القوم من نحوها نُجلا

كان القحيف شاهدا ومشاركا في الحرب التي اشتعلت بين كعب وحنيفة بعيد مقتل الوليد بن يزيد، إذ أقدمت حنيفة على غزو كعب التي جمعت جموعها من بني عقيل وبني قشير وبني الحريش واشتبكوا مع حنيفة، فيما يعرف بيوم الفلج الأول، وفيه قتل يزيد بن الطثرية الشاعر المشهور وكان يومها مع بني عقيل، ما دعا القحيف إلى رثائه.

---

(١) الأغاني ٢٤/ ٥٢، وينظر الوافي بالوفيات ١٥١/٢٤، وفي شعره المجموع (ق٢٥ ص ٢٤٨) وردت الأبيات بترتيب مختلف .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وتدل مشاركته في أحداث يوم الفلج الأول وما تلاه، ورثاؤه ليزيد بن الطثرية على أنه كان على قيد الحياة بعد سنة ١٢٦ه، ويذكر الزركليّ أنَّ القُحَيْف توفي نحو سنة١٣٠ه، بينما أرى أنه عاش بعد هذا التاريخ عدة سنوات يؤيد هذا نص المرزباني وشمس الدين الدمشقي على أنه لحق الدولة العباسية(١).

ويغلب على شعر القحيف المقطعات وليس القصائد، وإن كنت أرى أن بعض هذه المقطعات ليست إلا أجزاء من قصائد عبثت بها يد البلى، لا سيما أشعاره التي سجل فيها معارك بني عامر القيسيين ضد بني حنيفة الربيعيين فيما يعرف بأيام القاع والفلج الأول والفلج الثاني والنشاش، ولم يكن القحيف شاهد عيان على هذه الأيام فحسب بل شارك فيها، ووصف أحداثها، ورثى قتلاها، وفخر بأبطالها .

وعلى الرغم من أن القحيف أحد الشعراء المقلين إلا أنه قد نظم في معظم أغراض الشعر، وها هو ديوانه يطالعنا بمقطوعة فخرية يشير فيها إلى جوده وكرمه مع أحد طراق الليل(٢):

ومختبطٍ بَيَّيتُ إذ جاء طارقا وأَحسنتُ مثواه وأَسررتُ ما يَهوَى

فباتَ دَفِيّا طاعِما غيرَ مُؤَبٍ إلى أن غدا مُرغَى وأَعلنتُ ما يُروَى

وله أبيات في الغزل على طريقة أهل البادية (٣):

خليليَّ ما صبري على الزَّفَراتِ ما طاقتي بالشَّوقِ والعَبَراتِ

(١) معجم الشعراء /٣٣١ ، توضيح المشتبه ٣/ ٣٤٠ .
(٢) شعر القحيف ق٣٦ ص٢٥٣.
(٣) شعر القحيف ق٨ ص٢٣٤- ٢٣٥.

سَقَى ورَعَى الله الأَوانسَ كالدُّمى إذا قُمنَ جُنحَ الليـــلِ مُبتَهِراتِ

إذا مِسنَ قُدَّامَ البيوتِ عَشِـــيَّةً قِصارَ الخُطَى يَرفُلنَ في الحَبَراتِ

دَعَونَ بحبَّاتِ القلوبِ فأَقبَلَت إليهنّ بالأهـــــواءِ مُبتَدِراتِ

تَقَطَّعُ نفسي كُلَّ يومٍ ولَيــلَةٍ على إثرما قد فاتني حسرات

كذا لم يفته تصوير طيف الخيال[١] :

فيا عجبا مني ومن طارقِ الكَرَى إذا مَنَعَ العين الرقاد وسَهَّدا

ومن عبرة جاءت شآبيبَ إن بدا بذي بَقَرٍ آياتُ ربعٍ تـأَبَّدا

كما تحدث عن الخمر وأبان عن أثرها في نفوس شاربيها[٢]:

ومن أعجب الدنيا إليَّ زُجاجةٌ تَظَلُّ أيادي المنتشِينَ بها فُتلا

يَصُبّونَ فيها من كُرومٍ سُـــلافةً يروحُ الفتى عنها كأنّ به خَبلا

وبالإضافة إلى مقطوعاته الثلاث في رثاء يزيد بن الطثرية والتي سيرد ذكرها، فقد رثى الوليد بن يزيد[٣]، بيد أن رثاءه هذا لم يصل إلينا .

وشأن كل شاعر بدوي رأينا القحيف يقف على أطلال محبوبته[٤]:

ديارُ الحيِّ تَضرِبُها الطِّلالُ من الخافي بها أَهلٌ ومالُ

---

(١) شعر القحيف ق١٥- ص٢٣٨.

(٢) شعر القحيف ق٢٥- ص٢٤٨.

(٣) وفيات الأعيان ٦/ ٣٧٤.

(٤) شعر القحيف ق٢٣- ص٢٤٣، الطلال: جمع طل وهو المطر، الخـــافي: الجـــن، أجـــذم: أسرع، الذب: الثور الوحشي، تعبقرت: جنت، السخال: جمع سخلة وهي ولد الشاة، الـــدف: الجنب، الفدر: الوعول، الهقل: ذكر النعام، قالوا: من القيلولة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأجذَمَ ذَبُّها عَــودا وبَدءا بدَفَّيهِ تَعَبقَرَتِ السِّخالُ

بها الفُدُرُ الرِّيادُ وكلُّ هِقل كبيتِ الرُّفقَةِ احترقوا فقالوا

ويشير شعر القحيف إلى أنه عاش حتى غزته جيوش المشيب، وبدا القحيف كارها للمشيب متبرما منه غير مرحب به[١]:

خليليَّ لولا اللهُ ما قلتُ مَرحَبا لأوَّلِ شَيباتٍ طَلَعنَ ولا أَهلا

خليلَيَّ إنّ الشيبَ داءٌ كَرِهتُــهُ فما أحسنَ المرعى وما أَقبَحَ المحلا

أما عن مكانته بين الشعراء فهو شاعر مقل من شعراء الإسلام وقد وضعه ابن سلام الجمحي في الطبقة العاشرة بصحبة مزاحم بن الحارث العقيلي، ويزيد بن الطثرية، وأبو دواد الرؤاسي[٢]. ووصفه الآمدي بالشاعر المحسن[٣]، ووصفه المرزبانيّ[٤] وعبد الله الجبوري[٥] بالشاعر المفلق، ونعته ابن ماكولا بالشاعر المشهور[٦]، وأثنى ابن رشيق على قوله :

أمِنكُم يا حنيفَ نَعَم لَعَمرِي لِحىً مَخضوبَةٌ ودَمٌ سِجَالُ

(١) شعر القحيف ق٢٥- ص٢٤٨.

(٢) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء – تح محمود محمد شاكر- مطبعة المدني مصر ١٩٧٤م- ٢/ ٧٦٩- ٧٧٠.

(٣) الآمدي: المؤتلف والمختلف- تح عبد الستار فراج- مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر- ١٩٦١م- ١٢٩.

(٤) معجم الشعراء:٣٣١.

(٥) العبيدي: التذكرة السعدية في الأشعار العربية- تح عبد الله الجبوري- دار الكتب العلمية بيروت- - ص٦٩(حاشية).

(٦) الإكمال ٢/ ٥٢٣.

ووصفه بالملاحة[١]، وهو صاحب أفخر بيت قاله العرب وهو قوله[٢]:

إذَا مَا غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّـــةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

أخذ بشار هذا البيت فأدخله في قصيدته[٣]، واتهم ابـــن بـــري بشـــارا بانتحال البيت[٤]، والبيت منسوب للقحيف في العديد من مصادر الأدب[٥]، ثم ثم من أين لبشار هذه الغضبة المضرية وهو مولى فارسي؟! ومـمـــا يؤيـــد السرقة أن بشارا مولى لبني عقيل رهط القحيف، والقحيف يتقدمـــه مولـــدا ووفاة .

(١) العمدة ٢/ ٤٧ .
(٢) شعر القحيف ق٣١ ص٢٥١.
(٣) راجع المؤتلف والمختلف ١/ ٤٠، لسان العرب (مادة غشم) .
(٤) لسان العرب (مادة غشم).
(٥) المؤتلف والمختلف/١٢٩، التذكرة السعدية/١٨٥، التذكرة الحمدونية٢/ ٣٨٢، وأنشده أبو أبو هلال العسكري للقحيف هكذا : إذا ما فتكنا فتكة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

*** **أصداء**[١] **القبيلة**:

أ- المضمون :

ومن يطالع شعر القحيف العقيلي ويتأمل مضامينه يلحظ أنه سخر شعره في خدمة قبيلته حيث أدار حولها، ومن أجلها معظم شعره من مدح ورثاء وفخر وهجاء وتهديد ووصف، ولأنه كان لسان قبيلته المعبر عن آمالها وآلامها فقد عظمت مكانته وجلت منزلته بين أبناء عقيل.

فعندما مدح توجه بمدحه إلى أبناء قومه من بني كعب بن ربيعة، وهاهو يمدح حكيم بن المسيب ويشيد ببني قشير الذين شاركوا بني عقيل في تلبية نداء كعب حين حاصرتها حنيفة[٢]:

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُوْ قُشَيْرٍ ... لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

وَلا تَنْبُوْ سُيُوْفُ بَنِي قُشَيْرٍ ... وَلا تَمْضِي الأَسِنَّةُ فِي صَفَاهَا

تَنَضَّيْتُ القِلاصَ إِلى حَكِيْمٍ ... خَوارِجَ مِنْ تَبالَةَ أَوْ مَنَاهَا

فَمَا رَجَعَتْ بِخَائِبَةٍ رِكَابٌ ... حَكِيْمُ بْنُ المُسَيَّبِ مُنْتَهَاهَا

وقشير وعقيل والحريش وجعدة أخوة، وهم بنو كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وإرضاء هؤلام هو ما يسعى إليه ويحرص عليه، ففيه سعادته وسروره، وبهجته وحبوره، ويشيد بسيوف بني قشير القاطعة التي لا تنبو، الماضية التي لا تخطئ، في حين أن رماح أعدائهم لا تصل إليهم ولا

(١) أصداء جمع ، المفرد صدى، ومعناها هنا التأثير والانعكاس .

(٢) شعر القحيف ق٣٤ ص٢٥٢، أنضى فلان بعيره: هزله، القلاص: النوق الفتية، تبالة: بلدة باليمن، لا تنبو: لا تخطئ، الأسنة: الرماح، والبيت الأول من شواهد النحو على أن (على) بمعنى(عن)، والبيت الرابع من شواهد النحو على أن (الباء) تزاد في الحال المنفية.

تؤثر فيهم، ومثلما نوه بشجاعتهم فإنه يشيد كذلك بكرمهم ويثني على جودهم، لا سيما زعيمهم حكيم بن المسيب الذي تضرب إليه أكباد الإبل من نواح عديدة وبقاع بعيدة، فتعود بنعم كثيرة وخيرات وفيرة .

ومثلما أشاد القحيف ببني قشير نراه كذلك يشيد بغيرها ممن هبوا مع بني عقيل لنصرة كعب بن ربيعة في حربها ضد بني حنيفة أمثال قيس المعنية بإخضاع الهامات وإذلال الرقبات، وعامر التي يُكره لقاؤها ويُخشى نزالها، لاسيما حال انضمام كعب وكلاب إليها(١):

فَيَا حَبَّذا قَيْسٌ لَدَى كُلِّ مَوْطِنٍ تُزايِلُ هامَ القَوْمِ فِيْهِ رِقابُهَا
ومَنْ ذا الذِي لا يَجْتَوِي حَرْبَ عامِرٍ إذا مَا تَلاقَتْ كَعْبُهَا وكِلابُهَا
لَعَمْرِي لَقدْ ضَاقَتْ دِمَشْقُ بأَهْلِهَا غَدَاةَ رَأَوْا قَيْسًا تَرُفُّ عُقَابُهَا

وعندما رثى توجه إلى أبناء قومه من بني كعب وأبطالها الذين ضحوا بأرواحهم في سبيلها كيزيد بن الطثرية الشاعر المشهور الذي قتل يوم الفلج الأول سنة ١٢٦ه باليمامة، ذلك أنه لما قُتل الوليد بن يزيد كان على اليمامة- من قبل يوسف بن عمر الثقفي- علي بن المهاجر بن عبد الله الكلابي، فقال له المهير بن سلمى بن هلال أحد بني حنيفة: أخل لنا بلادنا، فأبى ذلك، فجمع له المهير وسار إليه وهو في قصره بقاع حجر"الرياض"، فالتقوا بالقاع بسوق حجر، فهزمه المهير حتى أدخله قصره، وخرج ابن المهاجر من ناحية القصر فهرب إلى المدينة، وقتل المهير بن سلمى ناسا من أصحابه..، وتأمر المهير على اليمامة، وكان على شرطه عبد الحكم بن حكام العبيدي،فركب المهير والناس معه فشد قوم على عبد الحكم فقتلوه، ثم مات المهير واستخلف عبد الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤل.

(١) شعر القحيف ق١ ص٢٣٢، يجتوي: يكره، عقابها: راياتها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فاستعمل عبد الله بن النعمان هذا المندلث بن إدريس الحنفي على الفلج، فجمع له بنو كعب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، وأتوا الفلج فقاتلهم المندلث بالفلج حتى قُتل على يد رحال بن فروة القشيري، وقُتل أكثر أصحابه، وظفرت بنو عامر ولم يقتل منهم كبير أحد، وقُتل يومئذ يزيد بن المنتشر، وأمه الطثرية ، وكان معهم(١).

وفيما بين أيدينا من شعر القحيف ثلاث مقطوعات في رثاء يزيد بن الطثرية لا شك عندي أنها أجزاء من قصائد عبثت بها يد البلى:

في الأولى يدعو عينه أن تباشر البكاء الغزير على يزيد الأثير الذي لم يتوان عن تلبية نداء القبيلة، بل دافع عن أرضها، وذب عن عرضها، ونصر أبناءها، وقاتل أعداءها(٢):

يَا عَيْنُ بَكِّي هَمَلاً عَلَى هَمَلْ
عَلَى يَزِيْدٍ وَيَزِيْدَ بْنِ جَمَلْ
قَتَّالُ أبْطَالٍ وَحَوْلَهُ حِلَلْ

وفي الثانية يشيد بيزيد فتى القبيلة وبطلها المغوار الذي قُتل دونه العشرات من حنيفة، ويبدو أن القبيلة أمامها وقت طويل حتى تعثر على شخص يدافع عنها دفاع يزيد، ولهذا فإن القحيف يستحث أبناء قشير على ندب يزيد وبكائه(٣):

(١) الكامل في التاريخ٤/٤٩١،وانظر: الأغاني٢٤/٥٠-٥٢، أنساب الأشراف٣/٢١٣- ٢١٤ .
(٢) شعر القحيف ق٢٢ ص٢٤٢، حلل: جمع حلة وهم القوم النزول وفيهم كثرة.
(٣) شعر القحيف ق٣٥ ص ٢٥٣ ، سراة: أهل المروءة، يزجي: يسوق برفق، أبو المكشوح : كنية يزيد فقد كان على كشحه كي نار.

أَلاَ تَبْكِي سَرَاةُ بَنِي قُشَيْرٍ عَلَى صِنْدِيْدِهَا وَعَلى فَتَاهَا
فَإِنْ يُقْتَلْ يَزِيْدُ فَقَدْ قَتَلْنَا سَرَاتَهُمُ الكُهُوْلَ عَلَى لِحَاهَا
أَبَا المَكْشُوْحِ بَعْدَكَ مَنْ يُحَامِي وَمَنْ يُزْجِي المَطِيَّ عَلَى وَجَاهَا

وفي الثالثة يوجه خطابه إلى أعداء قبيلته من حنيفة وغيرها مطالبا إياهم ألا يفرحوا بقتلهم الشهيد يزيد، فما قُتل حتى- سريعا- ذُبح دونه عشرون، ومن يطالع ساحة المعركة ير أيديهم بسطت، وأرجلهم رفعت، ودماءهم سالت، وأعضاءهم مزقت، وأشلاءهم بعثرت(١):

إنْ تَقتُلُوْا مِنَّا شَهِيْدَا صَابِرَا
فَقَدْ قَتَلْنَا مِنْكُمُ مَجَازِرَا
عِشْرِيْنَ لَمَّا يَدْخُلُوْا المَقَابِرَا
قَتْلَى أُصِيْبَتْ قَعَصَا نَحَائِرَا
نُفْجَا تَرَى أَرْجُلَهَا شَوَاغِرَا

إن من يطالع أشعار القحيف في رثاء يزيد لابد أنه سيلحظ أن القحيف لم يهتم بنشر فضائل يزيد المتعلقة بالكرم والجود، أوالعلم والشعر، أوالحسب والنسب، إنما ينشر بطولاته في سبيل قومه، وتضحياته من أجل قبيلته.

وعندما فخر كان فخره متجها اتجاها قبليا جماعيا وليس فخرا فرديا، من ذلك فخره بما صنعت قبيلته بنو عقيل بحنيفة يوم الفلج الأول سنة

(١) شعر القحيف ق١٩ ص٢٣٩، القعص: القتل السريع، النفج: الارتفاع، الشواغر: المرفوعات.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

١٢٦ه حين جمع المهير بن سلمى بن هلال أحد بني حنيفة جموعه وأقبل يريد أن يرهب بني عقيل التي انضم لها الأسود من بني قشير وجعدة والحريش أبطال الحروب ورجال المعارك وأرباب الشدائد، شيوخا وشبانا وكهولا وفتيانا، بسيوفهم اللامعة ودروعهم الساطعة، وقد انجلت أحداث ذلك اليوم عن نصر ساحق لبني عقيل وهزيمة نكراء لبني حنيفة(١):

لَقَدْ جَمَعَ الْمُهَيْرُ لَنَا فَقُلْنَا: أَتَحْسَبُنَا تُرَوِّعُنَا الْجُمُوْعُ؟
سَتَرْهَبُنَا حَنِيْفَةُ إِنْ رَأَتْنَا وَفِي أَيْمَانِنَا الْبِيْضُ اللَّمُوْعُ
عُقَيْلٌ تَغْتَزِي وَبَنُو قُشَيْرٍ تَوَارَى عَنْ سَوَاعِدِهَا الدُّرُوْعُ
وَجَعْدَةُ وَالْحُرَيْشُ لُيُوْثُ غَابٍ لَهُمْ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ صَرِيْعُ
فَنِعْمَ الْقَوْمُ فِي اللَّزَبَاتِ قَوْمِي بَنُو كَعْبٍ إِذَا جَحَدَ الرَّبِيْعُ
كُهُوْلٌ مَعْقِلُ الطُّرَدَاءِ فِيْهِمْ وَفِتْيَانٌ غَطَارِفَةٌ فُرُوْعُ

ولم يفت الشاعرُ أن يشيد بدَوْر حلفاء بني عقيل من بني قشير والحريش وجعدة في تحقيق النصر على بني حنيفة.

كذا فخر القحيف ببطولات قومه يوم النَّشَّاشِ، ذلك أنه لما أُوقع بالعامريين يوم الفلج الثاني قال عمر بن الوازع الحنفي: لست بدون عبد الله بن النعمان وغيره ممن يُغير، وهذه فترة يؤمن فيها السلطان، فمضى يريد أضاخ، فلما كان بأرض الشريف بث خيله فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم، وأقبل ومن معه حتى نزلوا النَّشَّاش، وأقبلت بنو عامر حاشدة حتى أغارت فلم يرع عمر بن الوازع إلا رغاء الإبل، فجمع ابن الوازع النساء في

(١) شعر القحيف ق٢٠ ص ٢٤١، اللزبات: الشدائد، تعتزي: تقصد .

فسطاط وأقام عليهن حرسا من ثقاته، ولقي القوم فقاتلهم فهُزمت حنيفة ومن معها، وهرب ابن الوازع فلحق باليمامة، وتساقط منهم خلق في قلب النَّشَّاشِ من العطش وشدة الحر، ورجع بنو عقيل بالأسرى والنساء[١]، فقال القحيف[٢]:

وَبِالنَّشَّاشِ يَوْمٌ طَارَ فِيْهِ ... لَنَا ذِكْرٌ وَعُدَّ لَنَا فَعَالُ

كأنَّ الأَيْمَنَيْنِ بَنِي نُمَيْرٍ ... وَإِيَّانا وَقَدْ حَسِرَ القِتَالُ

سَحَابَةُ صَيِّفٍ لِلبَرْقِ فِيْهَا ... زَفِيْفٌ لَيْلَةَ اخْتَبَأَ الهِلالُ

لقد صار هذا اليوم مصدر فخرهم ومنبع عزهم، فبفضله حل محل الشمس فعلهم، وطار في الآفاق ذكرهم، وفي ذلك اليوم لم يتوان القحيف عن التضحية بأهله وأقاربه فداء لقومه من كعب وبني عقيل الذين أذاقوا بني حنيفة مر الهزيمة، بضرب أتى الهامات وأطار اللبات[٣]:

فداء خالتي لبني عُقَيلٍ ... وكعبٍ حينَ تزدحمُ الجدودُ

هم تركوا على النَّشَّاش صرعى ... بضربٍ ثمَّ أهوَنُهُ شَدِيدُ

ولا يفتأ القحيف ينشر مناقب قومه ومآثر قبيلته يوم النَّشَّاشِ ويعدد ما لحق بأعدائهم، منبها إلى أن حنيفة ليست وحدها من ذاق الهزيمة يوم

(١) الكامل في التاريخ٤/٤٩٢، أنساب الأشراف ٣/٢١٤.

(٢) شعر القحيف ق٢٤ ص ٢٤٧، زفيف: سرعة وصول البرق، النشاش:جبل وآبار وواد تقع في الشريف في عالية نجد الوسطى شمال الدوادمي، راجع: معجم البلدان ٥/ ٢٨٦ .

(٣) شعر القحيف ق١١ ص ٢٣٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

النَّشَّاشِ بل شاركها حلفاؤها وعلى رأسهم بكر بن وائل، الذين لحق بهم الهوان، ونال منهم الذل، وتركوا طعاما للسباع ومؤونة للضباع(١):

تركنا على النَّشّاشِ بكر بن وائل وقد نهلت منها السيوف وعلت

وبالفلج العادي قتلى إذا التقت عليها ضباع الغيل باتت وظلت

فقلنا على النَّشّاشِ منا عصابة كراما وسمناها الهوان فذلت

وما لحق بحنيفة وبكر بن وائل أصاب- كذلك- هزان، وجميعهم لاقى الهوان على يد بني عقيل الذين إن حاربوا غطى ضوء الشمس غبارُ حربهم، وعملت سيوفهم في رقاب عدوهم(٢):

لَقَدْ لَقِيَتْ أَفْنَاءُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ وَهِزَّانُ بالبَطْحَاءِ ضَرْبًا غَشَمْشَمَا

إِذَا مَا غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

ومما يفخر به القحيف ما أقدم عليه الأبطال من قيس والأشراف من عقيل ومن حالفهم من بني كعب بن ربيعة يوم النَّشَّاشِ من كف عن السلب، وامتناع عن السبي، وصفح عن النساء، وعفة عن الإماء، مراعاة لحسن

(١) شعر القحيف ق٥ ص ٢٣٣، في أنساب الأشراف ٢١٤/٣ تروى الأبيات هكذا:

تركنا على النشّاش بكر بن وائل بطون السّباع العاويات قبورها

فتلناهم حتى رفعنا أكفّنا بمشهورةٍ بيضٍ حدادٍ ذكورها

وشيبان قد كانت لحينٍ وشقوةٍ كباحثة عن شفرةٍ تستثيرها

(٢) شعر القحيف ق٣١ ص٢٥١، الغشمشم: الكثير الشديد المتكرر.

السجايا وكريم الطباع، يشهد على ذلك بقاع أكمة وبلاد الفلج التي ارتوت بدماء بني حنيفة[١]:

سَلُوْا فَلَجَ الأفْلاجِ عَنَّا وَعَنْكُمُ ... وَأَكْمَةَ إذْ سَالَتْ سَرَارَتُهَا دَمَا
عَشِيَّةَ لوْ شِئْنَا سَبَيْنَا نِسَاءَكُمْ ... وَلكِنْ صَفَحْنَا عِزَّةً وَتَكَرُّمَا
عَشِيَّةَ جَاءَتْ مِنْ عُقَيلٍ عِصَابَةٌ ... تَقَدَّمَ مِنْ أبْطَالِهَا مَنْ تَقَدَّمَا

ونرى القحيف حريصا أن يعلم أبناء الحجاز جميعا أن قومه لم يكونوا البادئين، ولا على الحرب حريصين، ولكنهم دفعوا إلى القتال، وأرغموا على النزال بعدما أغارت حنيفة عليهم، وأعملت سيوفها فيهم[٢]:

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي قُرَيْشًا رِسَالَةً ... وَأَفْنَاءَ قَيْسٍ حَيْثُ سَارَتْ وَحَلَّتِ
بِأَنَّا تَلَاقَيْنَا حَنِيْفَةَ بَعْدَمَا ... أَغَارَتْ على أهْلِ الحِمَى ثُمَّ وَلَّتِ
لَقَدْ نَزَلَتْ فِي مَعْدِنِ البُرْمِ نِزْلَةً ... فَلأْيًا بِلَأْيٍ مِنْ أُضَاخَ اسْتَقَلَّتِ

ويؤكد القحيف أن قومه من بني عقيل قد فرض عليهم الحرب، وكتب عليهم الطعن والضرب الذي شغلهم عن فرائض دينهم، وحال بينهم وبين طاعة ربهم، وقد كشفت هذه الحرب معادن الرجال الصامدين صمود الجبال[٣]:

---

(١) شعر القحيف ق٣٢ ص٢٥١، سرارتها: أرضها وفروعها، فلج الأفلاج: موطن الشاعر، أكمة: قرية باليمامة بها منبر وسوق لجعدة وقشير تنزل أعلاها، وقال السكوني: أكمة من قرى فلج باليمامة لبني جعدة كبيرة كثيرة النخل، معجم البلدان ١/ ٢٤١.

(٢) شعر القحيف ق١ ص٢٣٤ ، معدن البرم: قرية لبني عقيل كثيرة الزرع والمياه، لأيا: تمهلا، أضاخ: جبل.

(٣) شعر القحيف ق٤ص٢٣٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لقَدْ مَنَـعَ الفَرائِـضَ عَـنْ عُقَيْـلٍ بِطَعْـنٍ تَحْـتَ أَلْوِيَـةٍ وَضَـرْبِ
تَـرَى مِنْـهُ المُصَـدِّقَ يَـوْمَ وَافَـى أَطَـلَّ عَلَى مَعَاشِـرِهِ بِصَلْـبِ

وعندما هجا توجه بالهجاء إلى قبيلة حنيفة أعداء كعب التي ينتمي إليها بنو عقيل رهط الشاعر، مذكرا إياهم بما حل بهم على يد كعب وحلفائها، وناصحا لهم ألا يفكروا في حربهم ثانية، فالرايات لا تزال مرفوعة، والرماح لا تنفك منصوبة، تريد مصافحتهم، وتبغي معانقتهم(١):

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمْسَتْ حَنِيفَةُ أَيْقَنَتْ بِأَنْ لَيْسَ إِلاَّ بالرِّمَاحِ عِتابُهَا
فَخَلُّوا طَرِيقَ الحَرْبِ لا تَعْرِضُوا لَها إِذا مُضَرُ الحَمْراءُ عَبَّ عُبَابُهَا

ولا تستطيع حنيفة أن تنكر ما حل بها وحلفائها على يد الشاعر وقومه يوم الفلج الأول ويوم النشاش، حيث قُتل الرجال، وسُبي النساء ويُتم الأطفال، بعدما عملت فيهم السيوف الهندية، والرماح الخطية(٢):

وَلَوْ أَنْكَرَتْ ضَيْمَا حَنِيْفَـةُ حَلَّقَـتْ بِهَا المُغرِبُ العَنْقَاءُ حَوْلا مُكَمَّـلَا
وَفِي الصَّحْصَحِيَّيْنَ الذِيْنَ تَرَحَّلُوْا كَوَاعِبُ مِنْ بَكْرٍ تُسَـامُ وتُحْبَـلَا
أُخِذْنَ اغْتِصَابَا خِطْبَةً عَجْرَفِيَّـةً وَأُمْهِـرْنَ أَرْمَاحَا مِنَ الخَـطِّ ذُبَّـلَا

ومثلما هجا حنيفة فقد هجا المهير بن سلمى بن هلال أحد بني حنيفة وأول من أشعل نار الفتنة بين بني حنيفة وبني عامر بعيد مقتل الوليد بن

(١) شعر القحيف ق١ ص٢٣٢، مضر الحمراء: رايات مضر الحمراء في الحرب، عب عبابها: أول أوانها.
(٢) شعر القحيف ق٢٦ ص٢٤٩، الصحصحيين: موضع، عجرفية: سريعة وقوية، الخَطُ أرض ينسب إليها الرماحُ: تقول: رماحٌ خطية.

يزيد، حيث جمع جموعه يريد أن يستولي على اليمامة ناسيا أنه ليس إلا عبدا من عبيد كعب، ما عليه إلا أن يسمع ويطيع[١]:

لَقَدْ جَمَعَ المُهَيْرُ لنَا فَقُلْنَا: أَتَحْسَبُنَا تُرَوِّعُنَا الجُمُوْعُ؟

فَمَهْلا يا مُهَيْرُ فَأَنْتَ عَبْدٌ لِكَعْبٍ سَامِعٌ لهُمُ مُطِيْعُ

ولم يكتف القحيف بهجاء المهير بل هدده وقومه إن اقتربوا من العقيق، فالأبطال في انتظارهم بكامل سلاحهم، والموت يطاردهم يريد الفتك بهم، وقد تحقق ما هدد به الشاعر، إذ دفع المهير حياته ثمنا لغروره على يد الشاعر وقومه[٢]:

يُرِيْدُ العَقِيْقَ ابْنُ المُهَيْرِ وَرَهْطُهُ وَدُوْنَ العَقِيْقِ المَوْتُ وِرْدًا وَأَحْمَرَا

وَكَيْفَ تُرِيْدُوْنَ العَقِيْقَ وَدُوْنَهُ بَنُوْ المُحْصَنَاتِ اللَّابِسَاتِ السَّنَوَّرَا

وعندما وصف لم يجد أفضل من أحداث يوم الفلج يصفها وصفا دقيقا صار فيما بعد وثيقة مهمة من وثائق التاريخ، ففي هذا اليوم أغارت حنيفة على كعب، وقد أقبلت حنيفة برجالها المدججين بالسلاح والعتاد، تعلو رؤوسهم الخوذات، وبأيديهم السيوف والسهام، وقد امتطوا ظهور الجياد، فاستغاثت كعب بحلفائها، وكانت عقيل- رهط القحيف- من أوائل القبائل التي لبت النداء فخرجت بفرسانِها وقِسِيّها ورماحها النواهل، وما هي إلا ليال ثلاث حتى كانت عقيل وحلفاؤها قد سحقت حنيفة مثلما تسحق الرَّحَى الحبوب[٣]:

---

(١) شعر القحيف ق٢٠ ص٢٤١- ٢٤٢.

(٢) شعر القحيف ق١٧ ص٢٣٩ ، السنور: كل سلاح من الحديد.

(٣) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٤، بيض: جمع بيضة وهي خوذة الرأس، الخلل: منفرج ما بين الصفوف، النصال: جمع نصل وهو حديدة السيف أو السهم، الصريخ: المستغيث، النبع: شجر تصنع منه القسي، الأسل: الرماح المعتدلة، ثلاثا: ثلاث ليال، الثفال: جلد يبسط تحت الرحى.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وَبِيْضٌ يَجْعَلُوْنَ الهَامَ فِيْهَا إِذَا ابْيَضَّتْ مِنَ الخُلَلِ النِّصَالُ

وَلَمَّا أَنْ دَعَوْا كَعْبَا وَقَالُوْا: نَزَالِ وَعَادَةٌ لهُمُ نَزَالُ

أَتَانَا بالعَقِيْقِ صَرِيْخُ كَعْبٍ فَحَنَّ النَّبْعُ والأَسَلُ النِّهَالُ

ثَلاثًا ثُمَّ وَجَّهْنَا إليْهِمْ رَحَىً لِلمَوْتِ لَيْسَ لهَا ثِفَالُ

ولا يخفى تأثر القحيف في بيته الأخير بقول زهير بن أبي سلمى في معلقته حين وصف الحرب(١):

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحْ كِشَافا ثُمّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

ومن بين ما تسلحت به بنو عقيل السيوف القاطعات، والجياد الصافنات، ذوات الأعناق الطويلة والأعمار المديدة التي أكسبتها خبرة، ومنحتها حنكة ومعرفة بالحروب وويلاتها، هذه الجياد طعامها الشعير والقت ونعالها الحديد(٢):

وَحَالفْنَا السُّيُوْفَ وَصَافِنَاتٍ سَوَاءٌ هُنَّ فِيْنَا وَالعِيَالُ

بَنَاتُ بَنَاتِ أَعْوَجَ طَامِحَاتٍ مَدَى الأبْصَارُ جِلَّتُهَا الفِحَالُ

شَعِيْرٌ زَادُهَا وَقَتِيْتُ قَتٍّ وَمِنْ مَاءِ الحَدِيْدِ لهَا نِعَالُ

وقد نظر القحيف وهو يصوغ البيت الأول إلى قول الله تعالى:" إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ"(٣).

---

(١) شرح المعلقات العشر/ ١١٧.

(٢) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٤- ٢٤٥، الصافنات: الجياد، صفون الفرس: أن تقوم على ثلاث وترفع رجلا واحدة حتى يكون طرف الحافر على الأرض، أعوج: فرس عتيق، جلة: جمع جليل وهو المسن، القت: علف الخيل، ماء الحديد: ما صهر منه.

(٣) سورة ص آية ٣١.

ولم تكن عقيل وحدها الملبية نداء كعب، بل لبى النداء كذلك الحريش التي نظمت صفوفها ورتبت جنودها، وقشير التي هب أبناؤها هبوب السيل عددا وعدة[١]:

وَكَرْدَسَتِ الحُرَيْشُ فَعَارَضُوْنا ... بِخَيْلٍ فِي فَوَارِسِهَا اخْتِيَالُ
وَسَالَتْ مِنْ أَبَاطِحِهَا قُشَيْرٌ ... بِمِثْلِ أَتِيِّ بِيْشَةَ حِيْنَ سَالُوْا

هذه الجموع من كعب وعقيل والحريش وقشير نظمت ركائبها، ورتبت كتائبها، وامتطت ظهور جيادها، طويلة القوائم، قوية الأجسام، خفيفة الحركة، في منظر يُطير اللب، ويُذهل العقل، ويُفزع الجن[٢]:

نَقُوْدُ الخَيْلَ كُلَّ أَشَقَّ نَهْدٍ ... وَكُلَّ طِمِرَّةٍ فِيْهَا اعْتِدَالُ
تَكَادُ الجِنُّ بِالغَدَوَاتِ مِنَّا ... إِذَا اصْطَفَّتْ كَتَائِبُنَا تُهَالُ
فَبِتْنَ عَلَى العُسَيْلَةِ مُمْسِكَاتٍ ... لَهُنَّ غُدَيَّةٌ رَهَجٌ جُفَالُ

وما إن انقشع ظلام الليل، وانشق نور الفجر حتى صالت كعب وحلفاؤها صولة رجل واحد تدفعهم نار الغيظ وحرارة الغل، ركع أمامها بنو حنيفة، بعدما فر كبارها، وولى صغارها، وانحنى أبطالها، وقُتل صناديدها، وقد أنفق بنو حنيفة عاما كاملا حتى تمكنوا من حصر موتاهم، وتكفين قتلاهم[٣] :

---

(١) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٥، كردس القائد خيله: جعلها كتيبة كتيبة، الحريش: من بطون بني كعب بن ربيعة، اختيال: زهو وتيه، أباطح: جمع أبطح وهو بطن الوادي ومسيل مائه، الأتي: السيل، بيشة: واد.

(٢) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٥- ٢٤٦، أشق: طويل، نهد: جسيم قوي، طمرة: طويلة القوائم خفيفة، تهال: تفزع من شدة الهول، العسيلة: ماء في جبل قنان، الرهج: الغبار.

(٣) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٦، أبيض ذو حواش: الفجر، النواصي: جمع ناصية وهي منبت الشعر في مقدم الرأس، الشعث: المتفرقة الشعر، الاغتلال: حرارة الجوف من العداوة والغيظ والشوق ونحوها،جحدلت: صرعت، حنانهم: رئيسهم الذي يلوذون به، أحال: أتت عليه سنة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فَلَمَّا شَقَّ أَبْيَضُ ذُوْ حَوَاشٍ ... لَهُ حَالٌ وَلِلظَّلْمَاءِ حَالُ

صَبَحْنَاهُمْ نَوَاصِيَهُنَّ شُعْثًا ... بِهِنَّ حَرَارَةٌ وَبِنَا اغْتِلالُ

فَلَمَّا جُحْدِلَتْ مِئَتَانِ مِنْهُمْ ... وَفَرَّ حَنَانُهُمْ عَنْهُمْ فَزَالُوْا

وَصَارُوْا بَيْنَ مُمْتَنٍّ عَلَيْهِ ... وَمَنْصُوْبٍ لَهُ جِذْعٌ طُوَالُ

تُكَفِّنُهُمْ حَنِيْفَةُ بَعْدَ حَوْلٍ ... وَكَيْفَ يُكَفَّنُوْنَ وَقَدْ أَحَالُوا؟

في هذا اليوم ارتفع صهيل الخيول وصليل السيوف وحمحمة الجياد حتى كادت أن تُسمع اليمامة بأسرها، أما بنو حنيفة فلم يثبتوا أمام جموع الخيل المنطلقة نحوهم، فتساقطوا بين جريح وقتيل، وقد صبغ الدم لحاهم، وسال تحت أقدامهم(١):

أَمِنْكُمْ يَا حَنِيْفَ نَعَمْ لَعَمْرِي ... لِحًى مَخْضُوْبَةٌ وَدَمٌ سِجَالُ؟

وَلَوْلا الرِّيْحُ أَسْمَعَ أَهْلَ حَجْرٍ ... صِيَاحَ البِيْضِ تَقْرَعُهَا النِّصَالُ

كَأَنَّ الخَيْلَ طَالِعَةً عَلَيْهِمْ ... بِفُرْسَانِ الصَّبَاحِ قَطَاً رِعَالُ

والبيت قبل الأخير أغار فيه القحيف على قول مهلهل بن ربيعة(٢):

فلولا الريحُ أُسمع من بِحَجْرٍ ... صليلَ البَيض تُقرع بالذُّكورِ

لقد سجل القحيف في لاميته هذه وصفا دقيقا لأحداث يوم الفلج الأول تضمن الفريقين المتباريين، واستعداد كل منهما، ووقت المعركة، والسلاح

(١) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٦، سجل الماء: صبه، حجر: مدينة اليمامة، رعال: جمع رعيل وهي القطعة المقدمة من الخيل .
(٢) العمدة ٢/ ٥٩ .

والعتاد وتفاصيل القتال، الأمر الذي يجعل هذه اللامية ترقى إلى درجة الوثيقة التاريخية .

تخبرنا اللامية أن حنيفة هجمت على كعب، فاستغاثت الأخيرة بحلفائها، فلبى عقيل وقشير والحريش نداءها، وفي غضون ثلاث ليال كان الفريقان قد استعدا للمعركة التي اشتعل أوارها مع انبثاق ضوء الفجر، ولم يمض كبير وقت حتى كُسرت شوكة حنيفة بعد أن فر كبيرهم، وولى صغيرهم، خوفا من سيوف كعب، ورماح عقيل، وسهام قشير، وجياد الحريش.

وهكذا بدا القحيف شاعرا يحمل على عاتقه همَّ قبيلته، يعاني ما تعانيه، وجلَّ فرحِهِ ينبع في المقام الأول من رضا قبيلته عنه، فهو ابن القبيلة البكر حين يمدح، وحين يهجو، لا يفخر إلا بها، ولا تتمخض نفسه عن حماسة إلا من أجلها، و" كان أمينا على سيادة قومه، وحاميا لحمى قبيلته، وكان شعره تعبيرا عن هذا التوظيف، وكانت مضامينه تؤكد عمق الإحساس بالانتماء إلى الأرض التي عاش فوقها"[١]،

ولا ريب أن أيام الفلَج تركت أثرها الواضح في شعر القُحَيْف بعد أن اقتطعت جزءا من شعره، وأخذت حجمها المناسب من قصائده؛ لأنّهُ حاول أن يتحدث من خلالها عن قدرة قومه الحربية..، وكان اعتزازه بقومه يوحي بعمق الصلة الممتدة في جذور انتمائه، ويؤكّد ولاءهُ إلى النصر الذي يمكن أن يتحقق[٢].

(١) شعر القحيف / ٢٢٦.
(٢) شعر القحيف/ ٢٢٧، عشرة شعراء مقلون/ ١٩٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ب- اللغة :

أما من حيث لغته الشعرية فإنها لغة معجمية يغلب عليها طابع البداوة، خرجت صلبة قوية الوقع، لها من الدوي ما يتلاءم مع أجواء الحرب التي يحياها؛ فكثرت الألفاظ الغريبة مثل (تَنَضَّيْتُ- القِلاصَ- يَجْتَوِي- صِنْدِيْدِهَا- يُزْجِي- قَعَصَا- شَوَاغِرَا- اللَّمُوْعُ- تَغْتَزِي- اللَّزَبَاتِ- غَطَارِفَةٌ- زَفِيْفٌ- غَشَمْشَمَا- فَلأْيَا- أُضَاخَ- الصَّحْصَحِيَّيْنَ- عَجْرَفِيَّةً- ذُبَّلَا- رَهَجٌ- جُفَالُ- شُعْثَا- جُحْدِلَتْ)، وقد وظف القحيف تلك الألفاظ، مستغلا ما تحمله من قوة وشدة تستدعيه ظروف واقعه المعيش، من أجل ترهيب الأعداء الذين يوجه لهم خطابه الشعري.

وحمل معجم القحيف عميق هموم قومه، عاش ظروفهم، وصور آلامهم؛ فجاء معجمه صدى لقضيته وانعكاسا لواقعه، حربيًا في المقام الأول، حيث كثرت <u>ألفاظ الحرب</u>، مثل:(تَنْبُوْ- تَنَضَّيْتُ- القِلاصَ- رِقَابُهَا- يَجْتَوِي- تَلاقَتْ- ضَاقَتْ- قَتَّالُ- أبْطَالٍ- صِنْدِيْدِهَا- يُقْتَلْ- قَتَلْنَا- يُحَامِي- يُزْجِي- المَطِيَّ- شَهِيْدَا- مَجَازِرَا- المَقَابِرَا- قَتْلَى- أُصِيْبَتْ- قَعَصَا- نَحَائِرَا- نُفْجَا- تُرَوِّعُنَا- الجُمُوْعُ- سَتَرْهَبُنَا- اللَّمُوْعُ- تَغْتَزِي- سَوَاعِدِهَا- لُيُوْثُ- مَعْرَكَةٍ- صَرِيْعُ- اللَّزَبَاتِ- مَعْقِلُ- الطُّرَدَاءِ- غَطَارِفَةٌ- فُرُوْعُ- القِتَالُ- فداء- صرعى- بضربٍ- أهوَنُهُ- قتلى- عصابة- فذلت..).

<u>كذا تعددت أدوات القتال</u> مثل: (الرماح- السيوف- القنا- الدرع- البيض- الأسل- السياط- الأسنة)، وورود هذه الألفاظ في شعره له ما

يبرره إذ أنه عني بتصوير معارك قومه ضد بني حنيفة في أيام القاع والفلج والنشاش فكان لابد من استعراض قوة قومه وما تملك من عدة وعتاد.

كما وظف في نفس الاتجاه ألفاظ الألوان (البِيْضُ- الحَمْراءُ- العَقِيْقِ- وَأَحْمَرَا- ابْيَضَّتْ- مَخْضُوْبَةٌ- دَمٌ).

وتظل الإشارة الجادة إلى تعلقه بقومه وارتباطه النفسي بقبيلته، في ذكره أسماء القبائل والبطون – من ناحية- مثل:(حنيفة- مضر- قيس- عامر- كعب- كلاب- عقيل- بكر بن وائل- قريش- عبس- قشير- جعدة- الحريش- نمير)، ومن غير شك فقد أشاد بقبائل قيس، وذم بطون بني حنيفة.

وذكره الأماكن- من ناحية أخرى- مثل:(دمشق- النشاش- فيشان- الفلج- معدن البرم- أضاخ- خبت- السيدان- الأوق- الخنوقة- وادي القرى- ذوبقر- كتمان- العراق- جبال بم- أسبيذ- مريع- شسعى- رأس حالق- العقيق- العسيلة- حجر- بيشة- مكة- الصحصحيين- قطار- خريق- أكمة- تبالة)، وفيها دلالة على شدة ارتباط الشاعر بأرضه واعتزازه بقبيلته التي سحقت أعداءها على رمال هذه الأماكن والبقاع[1].

ولم يخل معجم القحيف من أسماء الحيوان والطير مثل:(الذئاب- الضباع- الناقة- الحمام- القطا- الليث- الذب(الثور الوحشي)- السخال(ولد الشاة)- الفدر(الوعل)- الهقل(ذكر النعام)- الصافنات(الخيل)- أعوج(الفرس)- الخيل- القلاص(النوق)- العنقاء)، وورود هذه الكلمات في

(١)) لتحديد مواقع هذه الأماكن راجع: معجم البلدان ١/ ٢٨٢ ، ٤٧١ - ٢/ ٣٩٤ - ٣/ ٣٤٢- ٤/ ١٣٩، ٢٧١ ، ٢٨٤، ٤٣٦- ٥/ ١١٨، ١٥٤، ٢٨٦.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

شعره أمر بدهي إذ أنه شاعر بدوي يسكن الصحراء ويألف الحيوان، ويقاسمه المطعم والمشرب والمسكن.

كما لم يخل من الألفاظ الدينية، مثل:(رَضِيَتْ- اللهِ- شَهِيْدَا- صَابِرَا- الهِلالُ- الفَرائِضَ- المُحْصَنَاتِ- تُكَفِّنُهُمْ- يُكَفَّنُوْنَ)، وكلها سارت في نفس الاتجاه، ونبعت من نفس المعين الحربية، بما يتواءم وحياته التي وهبها لقبيلته.

وهكذا تماهت الذات الشاعرة مع القبيلة، وغدت جزءا لا يتجزأ منها، وصار هدفه الأول هو إرضاء قومه، وحمل قضاياهم، فجاء معجمه اللفظي في الفخر والحماسة والرثاء والهجاء قبليا خالصا، لا يبتعد بوصفه عن القبيلة ومآثرها، في أيامها وحروبها وهو يتباهى بانتصاراتها، وسحق أعدائها، أو وهو يبكي رجالها الأشداء أمثال الشاعر يزيد بن الطثرية، الذي خسرت به القبيلة فارسا من فرسانها الأقوياء.

كذا سارت حركة الضمائر في أبيات القحيف في اتجاه واحد، وهو التعبير بالجمع (نا)، وهذا الجمع نفسه انقسم إلى قسمين متضادين، وهو الـ (نحن) الخاص بالقبيلة، والـ (هم) الخاص بالأعداء الخصوم، وكما سبق أن ذكرنا، تماهت نفس القحيف، وذابت في القبيلة، وغدت جزءًا منها؛ له ما لها وعليه ما عليها، لا قضية تعلو، ولا صوت يرتفع على صوت القبيلة، يقول: (قَتَلْنَا- منَّا- لنَا- فَقُلْنَا- أَتَحْسَبُنَا- تُرَوِّعُنَا- سَتَرْهَبُنَا- رَأَتْنَا- أيْمَانِنَا- وَإِيَّانا- تركنا- فقلنا- وسمناها- غَضِبْنا- هَتَكْنَا- عَنَّا- شَنْنَا- سَبَيْنا- صَفَحْنَا- بأَنَّا- تَلَاقَيْنَا- وَحَالفْنَا- فِيْنَا- كَتَائِبُنَا- وَبِنَا)، في مقابل الخصوم (مِنْكُمُ-

وَعَنْكُمُ- نِسَاءَكُمْ- فَعَارَضُوْنا- صَبَحْناهُمْ)، وحين نوع في الضمير، جاء ناحية الخصوم، فمن أجل تحقيرهم والحط منهم، نجده أحيانا يستخدم ضمير الغائب للمؤنث (بِهِنَّ- نَوَاصِيَهُنَّ). ولم يرد ضمير المتكلم إلا في سياق إرضائه لقومه (أَعْجَبَنِي)، وهو ما كرس له حياته وشعره.

ومن أهم الجوانب التي لا يمكن إغفالها عند مناقشة أبيات القحيف جانب التراكيب، وهى- على قلتها- تميزت بوفرة الأساليب الدالة على الخبر حينا، والإنشاء أحيانا، والتأكيد، والطلب كالاستفهام، والأمر، والنهي، والعرض، والتخصيص، والتمنّي، والترجّي، والنداء، والشرط، والنفي باستخدام الأدوات الدالّة على هذه الأساليب.

اعتمد القحيف في أبياته على التنويع بين الجمل فعلية واسمية، وإن كانت الغلبة للجمل الفعلية؛ فهو يقص علينا أمجاد قومه، وهم أصحاب أفعال لا أقوال، وقد استطاع القحيف ببراعة فنية عالية أن يوظف أزمنة الأفعال- الماضي والمضارع والأمر- ليخدم رسالته التي يريد أن يبلغها، ومجده الذي يفاخر به الأمم، وأيام قبيلته التي يباهي بها خصومه، إلا أن الملاحظ في حركة الأفعال بأزمنتها هو توظيفه لها بوعي شديد، فجاءت الغلبة للفعل الماضي، بما يفيد من ثبات للحدث، وتأكيد عليه؛ حين يحكي عن الحرب وأهوالها، فهو يقدم حقائق لا جدال فيها (ضَاقَتْ دِمَشْقُ بِأَهْلِهَا- رَأَوْا قَيْسَا - فَقَدْ قَتَلْنَا- جَمَعَ المُهَيْرُ- فَقُلْنَا- حَسِرَ القِتَالُ- تركوا- تركنا على النَّشّاشِ- نهلت منها السيوف- علت- التقت عليها ضباع الغيل- باتت وظلت- فقلنا على النَّشّاشِ- لَقِيَتْ أَفْنَاءُ بَكْرٍ- إذَا مَا غَضِبْنا- هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ- قَطَرَتْ دَمَا- لوْ شِئْنَا سَبَيْنا نِسَاءَكُمْ وَلكِنْ صَفَحْنَا- جَاءَتْ مِنْ عُقَيلٍ - تَقَدَّمَ مِنْ أبْطَالِهَا مَنْ تَقَدَّمَا- تَلَاقَيْنَا حَنِيْفَةَ- أَغَارَتْ- وَلَّتِ-

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لَقَدْ نَزَلَتْ - لقَدْ مَنَعَ الفَرائِضَ - أَطَلَّ عَلَى مَعَاشِرِهِ - أَمْسَتْ حَنِيفَةُ أَيْقَنَتْ- وَلَوْ أَنْكَرَتْ ضَيْمًا حَنِيْفَةُ حَلَّقَتْ بِهَا المُغرِبُ - أُخِذْنَ اغْتِصَابًا - وَأُمِهِرْنَ أَرْمَاحًا - وَلَمَّا أَنْ دَعَوْا كَعْبًا وَقَالُوْا- أَتَانَا بالعَقِيْقِ- وَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ- وَحَالَفْنَا السُّيُوْفَ- وَكَرْدَسَتِ الحُرَيْشُ فَعَارَضُوْنا - وَسَالَتْ مِنْ أَبَاطِحِهَا قُشَيْرٌ - فَبِتْنَ عَلَى العُسَيْلَةِ - فَلَمَّا شَقَّ أَبْيَضُ- صَبَحْنَاهُمْ نَوَاصِيَهُنَّ شُعْثًا- وَصَارُوْا بَيْنَ مُمْتَنٍّ عَلَيْهِ- فَلَمَّا جُحْدِلَتْ مِئَتَانِ مِنْهُمْ وَفَرَّ حَنَانُهُمْ عَنْهُمْ فَزَالُوْا).

وجاء توظيفه للفعل المضارع بما يفيده من استمرار الحدث وتجدده؛ إشارة إلى مجد قومه المستمر، وقوته التي لا تخبو أبدا (لا تَنْبُوْ- وَلا تَمْضِي- لا يَجْتَوِي حَرْبَ عامِرٍ - قَيْسًا تَرُفُّ عُقَابُهَا- أَلاَ تَبْكِي سَرَاةُ بَنِي قُشَيْرٍ).

وتأتي المفارقة بين الفعلين (تقتلوا) و (قتلنا)، في قوله :

إِنْ تَقْتُلُوْا مِنَّا شَهِيْدًا صَابِرًا فَقَدْ قَتَلْنَا مِنْكُمُ مَجَازِرَا

لتمثل غاية الفنية في توظيف الأفعال، فإن الملاحظة الأولى قد تجزم بوقوع القحيف في الخطأ أو السهو، حيث جعل قتلهم ليزيد بن الطثرية (الشهيد) مضارعا، على حين جعل قتل قبيلته ماضيا، وكان الأولى أن يعكس الأزمنة، لكن ما فعله القحيف يشير إلى براعته وصدق مشاعره، ومدى اللوعة التي كانت تختلج حناياه؛ فجعل قتلهم للشهيد مضارعا ليفيد من جهة استمرارية الحدث؛ فلم يكن قتله بالشيء الهين، وإنما هو أبيٌّ على القتل، مما يستدعي الزمن المضارع المستمر، فضلا عن إضافته لضمير الجمع (تقتلوا)، ومن جهة ثانية جاء قتل قبيلته وتجزيرهم الخصوم ماضيا

(قتلنا) ليوحي بسهولة الأمر، وهوانه على القبيلة، وهو ما كان أدعى للتفاخر والتباهي.

غالبا ما تكون قصائد الحرب دافعة للتشويق والترقب، لكن القحيف رأى ضرورة التنويع بين الخبر والإنشاء من الأساليب؛ لجذب انتباه المتلقي أو المستمع، والتأثير فيه، وإذا كانت الغلبة للأساليب الخبرية؛ لتقرير فكره التي أراد التعبير عنها، فإنه قد عضد ذلك بجملة من الوسائل كالتكرار، والقصر، وغيرها، كتكرار النفي في قوله:

وَلا تَنْبُوْ سُيُوْفُ بَنِي قُشَيْرٍ ... وَلا تَمْضِي الأَسِنَّةُ فِي صَفاهَا

وتكرار (النشاش)، في قوله:

هم تركوا على النَّشَّاشِ صرعى ... بضربٍ ثَمَّ أهوَنُهُ شَدِيدُ

تركنا على النَّشّاشِ بكر بن وائل ... وقد نهلت منها السيوف وعلت

فقلنا على النَّشّاشِ منا عصابة ... كراما وسمناها الهوان فذلت

ومن التكرار، تكراره (العقيق)، في قوله:

يُرِيْدُ العَقِيْقَ ابْنُ المُهَيْرِ وَرَهْطُهُ ... وَدُوْنَ العَقِيْقِ المَوْتُ وِرْدًا وَأَحْمَرَا

وَكَيْفَ تُرِيْدُوْنَ العَقِيْقَ وَدُوْنَهُ ... بَنُوْ المُحْصَنَاتِ اللَّابِسَاتِ السَّنَوَّرَا

ومن أمثلة التأكيد بحرف الجر الزائد:

فَمَا رَجَعَتْ بِخَائِبَةٍ رِكَابٌ ... حَكِيْمُ بْنُ المُسَيَّبِ مُنْتَهَاهَا

ومن أمثلة التأكيد بـ(لقد):

لَقَدْ جَمَعَ المُهَيْرُ لَنَا فَقُلْنَا: ... أَتَحْسَبُنَا تُرَوِّعُنَا الجُمُوْعُ؟

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله:

لَقَدْ نَزَلَتْ فِي مَعْدِنِ البُـرْمِ نِزْلَـةً فَلأْيَـا بِـلَأْيٍ مِنْ أُضَـاخَ اسْتَقَلَّتِ

ومن القصر قوله:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمْسَتْ حَنِيفَةُ أَيْقَنَـتْ بِأَنْ لَيْـسَ إِلاَّ بالرِّمـاحِ عِتابُهَـا

استغل القحيف النداء، في التعبير عن فاجعته لمقتل صديقه ابن الطثرية:

يَا عَـيْنُ بَكِّي هَمَلاً عَلَى هَمَـلْ
عَلَى يَزِيْـدٍ وَيَزِيْـدَ بْـنِ جَمَـلْ

وينـاديه بكنيته، قائلا:

أَبَا المَكْشُـوْحِ بَعْـدَكَ مَـنْ يُحَامِي وَمَـنْ يُـزْجِي المَطِيَّ عَلَى وَجَاهَا

كما وظف أسلوب الاستفهام في التعبير عن ألمه وتفجعه لمقتل صديقه، وحث أبناء قشير على ندبه وبكائه، يقول:

أَلاَ تَبْكِي سَـرَاةُ بَنِي قُشَيْـرٍ عَلَى صِنْدِيْـدِهَا وَعَلى فَتَـاهَـا

وعند الافتخار بقوة قومه، ونار حروبهم المستعرة، يوظف الاستفهام، يقول:

وَمَنْ ذا الذِي لا يَجْتَوِي حَرْبَ عامِرٍ إِذا مَا تَلاقَتْ كَعْبُهَـا وَكِلابُهَـا

ويقول:

تُكَفِّنُهُمْ حَنِيْفَـةُ بَعْـدَ حَـوْلٍ وَكَيْفَ يُكَفَّنُونَ وَقَدْ أَحَالُـوا؟
أَمِنْكُمْ يَا حَنِيْـفَ نَعَمْ لَعَمْـرِي لِحًى مَخْضُوْبَـةٌ وَدَمٌ سِجَـالُ؟

ويوظف الاستفهام لاستنكار فعل المعتدين الغزاة، يقول:

لَقَدْ جَمَـعَ المُهَيْـرُ لَنَـا فَقُلْنَا: أَتَحْسَبُنَـا تُرَوِّعُنَـا الجُمُـوْعُ؟

ج- الصورة:

كذا برزت الصورة واضحة في أبيات القحيف، وكانت زاخرة بالمعانى التي ترتبط ليس فقط بنفسيته، وإنما بواقعه وظروفه التي فرضتها عليه الحرب، وقد استطاع أن يسخر الصورة للولوج بنا إلى عالمه، وتمثل تجربته خير تمثيل، ولم تأتِ الصور في بنيان نصوصه- على الرغم من عفويتها- مصادفة سياق، وإنما جاءت وفق منهجٍ محددٍ، قصد إليه قصدًا، كشف فيه عن رؤاه الذاتية وتأملاته الخارجية بكل دقة ووضوح، وكان ترابطها وتجانسها من أهم مميزات الصور عنده؛ مما كان له عظيم الأثر في التأثير في المتلقي.

استطاع القحيف أن يوظف الصورة بأشكالها؛ الجزئية والكلية والمركبة، من أجل خدمة قضيته التي كرس من أجلها شعره – بل حياته- ، وقد تنوعت أغراضها ما بين التشخيص والتجسيد، وكلها دارت في سياق الحديث عن قبيلته وحروبها وانتصاراتها في معاركها؛ ارتفعت معها الأفكار والمعانى المعنوية والمجردات والجمادات وما في معناها فتجلت واعية، ناطقة، مفكرة، متحركة في علاقة حميمة وظفها في عالمه الخاص، فلم يعد (الرضا) عندما ترضى عليه قبيلته أمرًا معنويًا، وإنما هو (بَشَرٌ) يعجب، يقول:

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُوْ قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

وإذا كان جمع الجموع وحشا مفزعا يرهب الأنداء في أي معركة، فإنها لا ترهب قبيلة القحيف، يقول:

لَقَدْ جَمَعَ الْمُهَيْرُ لنَا فَقُلْنَا: أَتَحْسَبُنَا تُرَوِّعُنَا الجُمُوْعُ؟

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وفي سياق التفاخر بقوة قومه غدت السيوف لا تنبو والأسنة لا تمضي:

وَلا تَنْبُو سُيُوْفُ بَنِي قُشَيْرٍ ... وَلا تَمْضِي الأَسِنَّةُ فِي صَفاهَا

بل هى إنسان (ينهل ويعلو):

تركنا على النَّشّاشِ بكر بن وائل ... وقد نهلت منها السيوف وعلت

وها هو(الهلال) يختبئ:

سَحَابَةُ صَيِّفٍ لِلبَرْقِ فِيْهَا ... زَفِيْفٌ لَيْلَةَ اخْتَبَأَ الهِلالُ

وجعل عينيه إنسانا يناديه، يلتمس منه أن يباشر البكاء الغزير على يزيد الأثير الذي لم يتوان عن تلبية نداء القبيلة، بل دافع عن أرضها وذب عن عرضها ونصر أبناءها وقاتل أعداءها:

يَا عَيْنُ بَكِّي هَمَلاً عَلَى هَمَلْ

عَلَى يَزِيْدٍ وَيَزِيْدَ بْنِ جَمَلْ

كما لعب التشبيه دوره، فجعل (جعدة والحريش) أسود غاب :

وَجَعْدَةُ وَالحُرَيْشُ لُيُوْثُ غَابٍ ... لَهُمْ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ صَرِيْعُ

اتضحت صورة الحرب جلية في شعر القحيف؛ وشغلتْ منه مكانا واسعا، فعبر في أكثر من لوحة بمشاهد وتفاصيل الحرب التي عاش في أجوائها، فازدحمت لديه عناصر القتال والسلاح والدم والموت :

وَلَمَّا أَنْ دَعَوْا كَعْبَا وَقَالُوْا: ... نَزَالِ وَعَادَةٌ لهُمُ نَزَالُ

أَتَانَا بالعَقِيْقِ صَرِيْخُ كَعْبٍ ... فَحَنَّ النَّبْعُ والأَسَلُ النِّهَالُ

ثَلاثًـا ثُـمَّ وَجَّهْـنَ إليْهِـمْ رَحَىً لِلمَوْتِ لَيْسَ لهَا ثِفَـالُ
فَلَمَّا شَقَّ أبْيَضُ ذُوْ حَـوَاشٍ لهُ حَالٌ وَلِلظَّلْمَـاءِ حَـالُ
صَبَحْناهُـمْ نَوَاصِيَهُنَّ شُعْـثًا بِهِـنَّ حَـرَارَةٌ وَبِنَـا اغْتِـلالُ
فَلَمَّـا جُحْدِلَـتْ مِئَتَـانِ مِنْهُمْ وَفَـرَّ حَنَانُهُمْ عَنْـهُمْ فَزَالُـوْا
وَصَـارُوْا بَيْـنَ مُمْتَـنٍّ عَلَيْـهِ وَمَنْصُـوْبٍ لهُ جِـذْعٌ طُـوَالُ
تُكَفِّنُهُـمْ حَنِيْفَـةُ بَعْـدَ حَـوْلٍ وَكَيْفَ يُكَفَّنُوْنَ وَقَدْ أَحَالُـوا؟

تلك اللوحة الحربيّة المُفعَمة بالحركة والصور المتنوعة، لتؤلف صورة كلية، ولوحة أدبية فنية غنية بالمعاني والدلالات، استطاع القحيف أن يصور فيها المعركة، فيقدم لها الأسباب والمقدمات، ثم انتقل إلى بعض أدوات الحرب من الخُوَذة التي تعتلي هامة المقاتل، والسهام التي لمعَتْ نصولُها من اختلاط جموع الكتائب، كما ذكرَ تلبية قومه لنداء استغاثة بني كعبٍ عندما غزَتْهم حنيفة، وفي ذلك اشتياق أيدي الفرسانِ لأسلحة القتال، وقد أمهلَ القومُ الأعداءَ ثلاثة أيام حتى انقشع ظلام الليل وانشق نور الفجر، وبدأَتْ رَحَى الحرب تسحقُهم؛ فصالت كعب وحلفاؤها صولة رجل واحد تدفعهم نار الغيظ وحرارة الغل، ركع أمامها بنو حنيفة التي فر كبارها وولى صغارها وانحنى أبطالها وقتل صناديدها، وقد أنفق بنو حنيفة عاما كاملا حتى تمكنوا من حصر موتاهم وتكفين قتلاهم.

ومن حيث مصادر الصورة فقد استمدها من البيئة الصحراوية بوديانها ورمالها، وسهولها وجبالها وحيوانها [١]:

(١) شعر القحيف ق٢٠ ص٢٤٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أَمِن أهْلِ الأَرَاكِ عَفَتْ رُبُوعُ نَعَمْ سَقْيا لهم لو تَستطيعُ

زيارتَهمِ ولكنْ أحْضَرَتْنا هُمومٌ ما يزالُ لها مُشِيعُ

كأنَّ البَيْنَ جَرَّعَني زُعافا من الحيَّاتِ مَطعَمُهُ فَظِيعُ

وماءٍ قد وَرَدتُ على جبــاه حمامٌ حائمٌ وقطا وُقوعُ

جعلتُ عِمامتي صِلةً لدَلْــوِي إليهِ حينَ لم تَرِد النُّسُوعُ

لأَسْقِيَ فِتْيَةً ومُنَقَّبــاتٍ أضرَّ بِنِقْيِها سَفَرٌ وَجِيعُ

كما استمد بعض صوره من مخزونه الثقافي لا سيما الديني منه كقوله[1]:

وخرقاءُ لا تزدادُ إلا مَلاحَةً ولو عُمِّرَت تَعميرَ نوحٍ وجَلَّتِ

وقوله[2]:

أما ومُعَلِّمِ التوراةِ موســى ومَن صلَّى وصامَ له بِلالٌ

لقد كانَت تَوَدُّكَ أُمُّ عَمرٍو بذاتِ الصَّدرِ إذ نُسِيَ الخِلالُ

(١) شعر القحيف ق٦ ص٢٣٤ .

(٢) شعر القحيف ق٢٣ ص٢٤٣.

**** الخاتمة :

يجدر بي في خاتمة هذا البحث أن أسجل النتائج الآتية:

١- ليس صحيحا ما ذكره المرزباني وشمس الدين الدمشقي من أن القحيف شاعر كوفي، بل الصحيح أنه أحد شعراء قيس، وتحديدا قبيلة عقيل، وموطن قبيلته منطقة الأفلاج وبواديها وشعابها.

٢- احتل القحيف مكانة كبيرة في أوساط قبيلته، وبين شعراء عصره ، يشي بذلك أمران: أولهما تعرضه للحسد والغيرة من أقرب أقاربه، والآخر اختيار خرقاء له من دون سائر الشعراء لكي يشبب بها ومن ثم يتحقق غرضها الرامي إلى أن تنفق سوق ابنتها.

٣- القحيف صاحب أفخر بيت في الشعر العربي وهو قوله:

إِذَا مَا غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

وقد أخذ بشار هذا البيت فأدخله في قصيدته، واتهم ابن بري بشارا بانتحال البيت، والبيت منسوب للقحيف في العديد من مصادر الأدب، ثم من أين لبشار هذه الغضبة المضرية وهو مولى فارسي؟! ومما يؤيد السرقة أن بشارا مولى لبني عقيل رهط القحيف، والقحيف يتقدمه مولدا ووفاة .

٤- يغلب على شعر القحيف المقطعات وليس القصائد، وإن كنت أرى أن بعض هذه المقطعات ليست إلا أجزاء من قصائد عبثت بها يد البلى، لا سيما أشعاره التي سجل فيها معارك بني عامر القيسيين ضد بني حنيفة الربيعيين فيما يعرف بأيام القاع والفلج الأول والفلج الثاني والنشاش، ولم يكن القحيف شاهد عيان على هذه الأيام فحسب بل شارك فيها، ووصف أحداثها، ورثى قتلاها، وفخر بأبطالها .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٥- على الرغم من أن الزركليّ وغيره من المؤرخين يذكرون أنَّ القُحَيْف توفي سنة١٣٠ه، إلا أنني أرى أنه عاش بعد هذا التاريخ عدة سنوات يؤيد هذا نص المرزباني وشمس الدين الدمشقي على أنه لحق الدولة العباسية.

٦- من يطالع شعر القحيف العقيلي يلحظ أنه سخر شعره في خدمة قبيلته حيث أدار حولها ومن أجلها معظم شعره من مدح ورثاء وفخر وهجاء وتهديد ووصف، ولأنه كان لسان قبيلته المعبر عن آمالها وآلامها فقد عظمت مكانته وجلت منزلته بين أبناء عقيل .

٧- خرج معجم القحيف اللفظي قبليا خالصا، غير بعيد عن القبيلة ومآثرها، في أيامها وحروبها حين يتباهى بانتصاراتها، وسحق أعدائها، أو حين يبكي رجالها الأشداء وفرسانها الأقوياء، حيث سيطر عليه أسماء الأماكن، والقبائل والبطون، وأدوات القتال، والحيوان والطير.

٨- طوع القحيف لغته لتخدم قبيلته وقضيتها حيث تماهى معها، وذاب فيها، وغدا جزءًا منها؛ له ما لها وعليه ما عليها، لا صوت يعلو على صوت القبيلة، يشهد على ذلك حركة الضمائر التي سارت في اتجاه واحد، وهو التعبير بالجمع (نا)، وهذا الجمع نفسه انقسم إلى قسمين متضادين، وهو الـ (نحن) الخاص بالقبيلة، والـ (هم) الخاص بالأعداء والخصوم.

٩- استغل القحيف في شعره معطيات علم البيان من استعارة وتشبيه وكناية، ومعطيات علم البديع من طباق وجناس وتصريع ورد عجز على صدر وغيرها .

١٠- وظف القحيف الصورة بأشكالها- الجزئية والكلية والمركبة- من أجل خدمة قضيته التي كرس من أجلها شعره – بل حياته- ، وقد تنوعت أغراضها ما بين التشخيص والتجسيد، وكلها دارت في سياق الحديث عن قبيلته وحروبها وانتصاراتها في معاركها .

١١- اقتبس القحيف العقيلي بعض ألفاظه ومعانيه وصوره من عيون التراث العربي لا سيما من مهلهل بن ربيعة وزهير بن أبي سلمى، كما اقتبس بعضها من القرآن الكريم .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المراجع:

١- الآمدي: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم- تح عبد الستار فراج- مطبعة عيسى البابي الحلبي- مصر ١٩٦١م.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ- تح عبد الله القاضي- دار الكتب العلمية بيروت- الثانية ١٤١٥ه .

٣- الأصفهانيّ: الأغاني: تح إحسان عباس وآخران- دار صادر بيروت- الخامسة ٢٠١٣م.

٤- البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب- تح عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي القاهرة- الرابعة ١٩٩٧م .

٥- البكري: اللآلي في شرح أمالي القالي- تح عبد العزيز الميمني- دار الكتب العلمية بيروت- الأولى ١٩٩٧م .

٦- حاتم صالح الضامن: عشرة شعراء مقلّون- نشر وزارة التعليم العالي بغداد- ١٩٩٠م.

٧- ابن حمدون: التذكرة الحمدونية- تح إحسان عباس وآخر- دار صادر بيروت- الأولى١٩٩٦م

٨- الجاحظ: المحاسن والأضداد- مكتبة الخانجي- الثانية ١٩٩٤م.

٩- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تح إحسان عباس- بيروت١٩٩٤م.

١٠- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده- تح محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل بيروت- الخامسة ١٩٨١م.

١١- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس- تح عبدالستار أحمد - التراث العربي الكويت- ١٩٦٥م.
١٢- الزركليّ: الأَعلام- دار العلم للملايين بيروت- الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.
١٣- سعد بن غنيم القباني: الشاعر القحيف العقيلي.. مابين الكوفة ووادي الدواسر والأفلاج- مقال - جريدة الرياض- العدد ١٤٦٦٩- ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٨م
١٤- ابن سلّام الجُمحيّ: طبقات فحول الشعراء- تح محمود محمد شاكر- مطبعة المدني- ١٩٧٤م.
١٥- شمس الدين الدمشقي: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم- تح محمد نعيم العرقسوسي- مؤسسة الرسالة بيروت- الأولى ١٩٩٣م.
١٦- الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها- مكتبة النهضة بغداد- ١٩٨٨م.
١٧- الشيباني: اللباب في تهذيب الأنساب- دار صادر بيروت - ١٩٨٠م.
١٨- الصفدي: الوافي بالوفيات- تح أحمد الأرناؤوط وآخر- دار إحياء التراث بيروت- الأولى ٢٠٠٠م .
١٩- عبد الله الجذالين:تاريخ الأفلاج وحضارتها-قدم له حمد الجاسر- مطبعة سفير- ١٩٩٣م.
٢٠- العبيدي: التذكرة السعدية في الأشعار العربية- تح عبد الله الجبوري- دار الكتب العلمية بيروت.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٢١- العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف- تح عبد العزيز أحمد- مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر.
٢٢- القالي: الأمالي في لغة العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٧٨م .
٢٣- ابن قتيبة: أدب الكاتب- تح محمد محيي الدين عبد الحميد- مكتبة السعادة مصر- الرابعة ١٩٦٣م.
٢٤- القُحَيْف العُقَيْلِيّ : شعر- جمع د٠حاتم صالح الضامن- مجلة المَجْمع العلمي العراقي، ج٣، م٣٧، ١٩٨٦م.
٢٥- ابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء- دار الكتب العلمية بيروت- الأولى١٤١١ه.
٢٦- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث- دار الثقافة بيروت - ١٩٧٣م.
٢٧- محيي الدين بن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار- ضبط نصه وصححه محمد عبد الكريم النمري- دار الكتب العلمية لبنان.
٢٨- المرزبانيّ: معجم الشعراء- تح عبد الستار فراج- عيسى البابي الحلبي مصر- ١٩٦٠م.
٢٩- ابن منظور: لسان العرب- دار صادر بيروت- ١٩٥٥م.
٣٠- ياقوت الحموي: معجم البلدان- دار صادر بيروت- ١٩٧٧م.

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١.	ملخص	٧٥٩٣
٢.	Abstract	٧٥٩٤
٣.	* مقدمة :	٧٥٩٥
٤.	** القحيف العقيلي:	٧٥٩٧
٥.	*** أصداء القبيلة:	٧٦٠٦
٦.	**** الخاتمة :	٧٦٣١
٧.	المراجع:	٧٦٣٤
٨.	فهرس الموضوعات	٧٦٣٧